مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٤) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (4) 2021

مفاهيم النقد الأدبي عند أدونيس

أ.د محمّد معلّا حسن*

رشا عيسى**

(تاريخ الإيداع ١٤ /٢ /٢٠٢١. قُبِل للنشر في ١٨/٥ /٢٠٢١)

□ ملخّص □

يدرس هذا البحث موضوع " مفاهيم النقد الأدبيّ عند أدونيس "، منطلقاً من الحديث عن مفهوم النقد الأدبيّ عند أدونيس ، الذي يعدّ مفهوما مختلفاً عمّا هو عليه عند النقّاد كما سنرى ، ومبرزاً أهميّة ظهور نمط كتابيّ جديد يتناسب مع التطوّر الثقافي والفكري، كما أنّ هذا البحث قد أولى أهميّةً للتمييز بين نوعي الكتابة (الإبداعيّة والوظيفية)، مركّزاً في الوقت نفسه على إبراز دور القراءة في العملية النقديّة ، كما أوضح الفرق بين إبداعيّة النقد وبين التقليد في النقد وفق رؤية أدونيس ، مركّزاً على أهميّة دور المتلقّي في سير العمليّة الإبداعيّة .

كلمات مفتاحية: النقد، الكتابة، الإبداع، القراءة.

* - أستاذ - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طرطوس - سورية.
** - طالبة دراسات عليا (ماجستير) - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طرطوس - سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٤) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (4) 2021

Concepts of literary criticism in Adonis' works

Dr. Mohamad Mouala Hasan*
Rasha Issa**

(Received 14/2 /2021. Accepted 18/5/2021)

□ ABSTRACT □

This paper studies the (Concept of literary criticism in Adonis' works) starting with discussing the concept of literary criticism in Adonis' works, which is a different concept from what it is with critics, as we will see. It highlights the importance of the emergence of a new writing style which commensurates with the cultural and intellectual development. This paper also presents the significance of distinguishing between the two types of writing (creative and functional), focusing at the same time on highlighting the role of reading in the critical process. It also explains the difference between the creativity of criticism and the traditionality of criticism according to Adonis' vision, stressing the importance of the role of the recipient in the course of the creative process.

Keywords: criticism, writing, creativity, reading.

* Professor, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tartous University-Syria.
** Postgraduate student Master) , Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tartous University-Syria.

مقدّمة:

إذا دققّنا في مفهوم النّقد الأدبي، نستطيع أن نرى أنّه يقوم على استمالة النّفس وجعل القارئ في حالة من التّشويق؛ فالمتلقّي يلتمسه بعقله، وحتّى المبدع يرى فيه ذاته، ولسببٍ واحد هو أنّه لا يخاطب الوجدان والعاطفة، بل يخاطب العقل والذوق المتعارف عليهما؛ فهو يعتمد على وسائل ومناهج لم يكن لها وجود من قبل. فالنّقد الأدبي إبداع تحليليّ ينتمي إلى ثقافات واتّجاهات معرفيّة مختلفة، إذ يقوم على تفكيك الرسائل الأدبيّة وإعطاء مدلولاتها المرمّزة المكثّفة. وعلى ذلك فإنّ النقد هو قراءة للأدب كما يقول (أحمد أمين) في كتابه (النقد الأدبي): "والنقد الأدبي علم ناشئ عن ملكات خاصّة، تنمو بالتربية والتمرين، فلو سُئلت عن ناشئ يريد أن يعدّ نفسه ناقداً، ليكون ناقداً أي طريق يسلك؟ أقول: إنّه يجب عليه أوّلاً أن يكثر من قراءة الأدب ويتفهّمه ويحاكي جيّده"[١]. كما أنّ النقد الأدبي واحد من الأنظمة العديدة المكوّنة لعالم الاتّصال الأدبي، متّصل بالإبداع والخلق، يقول أحمد أمين في ذلك: "والنقد أقل من الإبداع، لأنّه ينتظره حتّى يتم، فإذا تمّ، حكم عليه النقد بالحسن أو بالقبح "[٢].

أهميّة البحث:

تكمن أهميّة البحث في التركيز على مفاهيم النقد الأدبيّ كما نظّر لها أدونيس، لنبرز من خلال ذلك أهميّة الكتابة الإبداعيّة، ولنظهر الاختلاف بينها وبين الكتابة الوظيفية، ولنوضّح أهميّة القراءة وفعل التلقّي في استقبال النص الأدبيّ.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن الحقيقي من الزائف على مستوى الكتابة والقراءة إبداعيّاً، كما أنّه يهدف إلى إيضاح الخلل النقدي في إطلاق الأحكام الجاهزة على النتاج الأدبي، وذلك كلّه من وجهة نظر أدونيس.

منهج البحث:

اعتمدنا في بحثنا هذا المنهج الوصفيّ، حيث قمنا بالتعرّف إلى مفهوم الظاهرة وتطوّرها عند أدونيس، وربطها بالمفاهيم الأخرى، واستخراج العلاقات التي تربط بين هذه المفاهيم كما قدّم لها أدونيس.

مفهوم النقد الأدبي عند أدونيس:

إذا كان مفهوم النّقد الأدبيّ واضحاً عند معظم المفكّرين، غير أنّه خلاف ذلك فيما إذا أتينا إلى مفهومه عند النقّاد الشعراء، ومن ذلك ما نجده عند أدونيس؛ ولعلّ مردّ ذلك إلى الغموض الذي يلفّ مفاهيمه التي نظّر لها، تأسيساً للنظرية الأدبيّة التي يتبنّاها. فأدونيس في كلّ بقعة من نتاجه يحاول أن يؤسّس لمفهوم جديد للنّقد، ليس جديداً بمعنى أنّه حديث، نقيض للقديم، بل بمعنى أنّه خلّاق توليدي مغاير لما هو معتاد وبتعبير مبتكر.

يجعل أدونيس للنقد الأدبي اتّجاهين رئيسين: "مدرسي، وتأويلي. يعتمد الأوّل منهجاً موضوعياً، يعالج به الوقائع التي تتعلّق بالأثر المنقود وحياة صاحبه، كما هي، ويرفض أي تأويل إيديولوجي؛ بينما الاتّجاه الثاني يعطي دلالات لهذه الوقائع استناداً إلى منظور إيديولوجي "[٣].

---

[١]- النقد الأدبي: أحمد أمين - مؤسسة هنداوي - القاهرة ، ٢٠١٢. ص ٩.
[٢]- المصدر نفسه، ص ١٠.
[٣]- زمن الشعر: أدونيس - دار العودة - بيروت ، ١٩٧٠. ص ٣٦٠.

يزعم أدونيس أنّ هناك نوعاً من النقد خالياً من الإيديولوجية. فالناقد عندما يقبل على النّص الأدبيّ يكون مدرّعاً بخلفيّة إيديولوجيّة. والنقد الجديد خارجٌ على الاتّجاهين (المدرسي والتأويلي)، إذ إنّ النّقد الأدبي فيه استقصاءات جديدة رامية إلى التعرّف إلى خبايا النّص الأدبي، وإلى الكشف عن آلياته الفاعلة، وتستهدف الوصول إلى فهم أعمق لطبيعة العمل الأدبيّ، وللخصائص التي تميّزه عن غيره من أشكال الكتابة الأخرى. ولهذا فإنّ أدونيس يرى أنّ لكلّ خلق جديد فهماً نقدياً جديداً، وقيمة النقد متأتّية من القدرة على الإبحار في جوهر الإبداع. يقول في ذلك: "لكلّ إبداع تقييم نقدي جديد، ولكلّ رؤيا جديدة فهم نقدي جديد، ستكون قيمة النقد متعلّقة بمدى قدرته على الغوص في التجربة الإبداعيّة الجديدة بحدّ ذاتها، وضمن حدودها "[١]. فالنقد الأدبي عند أدونيس مجموعة من النشاطات المتداخلة والمتفاعلة، التي يتمّ كلّ منها في إطار مختلف.

يُشير أدونيس إلى أنّ النّقد الأدبي ليس أقلّ شأناً من الفنون الأخرى كالرواية والمسرحيّة في التعبير عن العمل الأدبي، فلا تتّضح القيم والمعايير الثقافية من دونه. فمن وظائف النقد الأولى متابعة النشاط الأدبي بالدرس والتحليل، لأنّ النّقد الأدبيّ دارس لإنجازات الأدب الإنسانيّ. كما أنّه يعمل على خلق تيّار من الرؤى الجديدة والأفكار الثقافية التي ترفد حركة الإبداع، وتصنع الحركة الثقافية المحلّية في وسط العصر الذي نعيش فيه، بالإضافة إلى القدرة على تغيير الحساسية الأدبيّة، واكتشاف عناصر جديدة للحساسية الأدبية وإظهار الفجوة بين الثقافة الحقيقية والزائفة التي تمثّلها الواجهة الثقافية الباديّة للعيون، نظراً لأنّ النقد الأدبي يدرس تراث الإنسانيّة بكلّ ما فيه، فهو الأقدر على تمييز الحقيقيّ من الزائف في حقل الإبداع الأدبيّ.

يُرجع أدونيس الانتكاسات المتكرّرة التي تعاني منها الثقافة العربيّة ويعزوها إلى الأزمة التي يُعاني منها النّقد العربيّ، وإلى إخفاقه في القيام بوظائفه، من تضييق الفجوة بين الثقافة الحقيقية والواجهة الثقافية ، ومن خلق تيار من الرؤى والأفكار الرافدة للإبداع . يقول في ذلك : " أنا أعتقد أنّ الأزمة بذاتها ليست المشكلة ، بل العكس ، الأزمة قد تكون دليل حيوية لأنّها تُشير إلى هواجس وتطلّعات ينتقل بها الشعب من مرحلة إلى مرحلة ، ولا أستطيع أن أرى شعباً حيّاً دون أزمات ... ، فالأزمة ليست أزمة حضارية بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنّما هي أزمة العقل العربيّ المتعقّل ؛ أي الذي يحال بينه وبين الأسئلة الحقيقية الجذريّة "[٢].

ولطالما كانت أزمة النّقد على هذه الشاكلة، فإنّ أدونيس يعترف بأنّ شعره يصعب نقده، طالما أنّ الناقد غير مجهّز بأدوات تسمح له دخول عالم أدونيس الإبداعي، فقراءة أدونيس تستدعي التسلّح بعدّة فكريّة ثقافية كافية. يقول في ذلك: "أما نقد شعري فيحتاج إلى ابتكار مفهومات جديدة واستخدام أدوات نقدية جديدة واعتماد وسائل جديدة لاكتشاف هذه العلاقات القائمة بين لغتي الشعرية والأشياء التي أتحدّث عنها "[٣].

رغم ذلك فإنّ أدونيس يتحدّث بشفافيّة، فهو لا ينفي وجود دراسات نقديّة مهمّة تناولت شعره، لكنّها لم ترق إلى المستوى الذي يطمح إليه. يقول في هذا الصدد: "لستُ فوق النقد، ولا أحد فوق النقد. ما أقوله ببساطة هو أنّ النقد العربي كما يمارس اليوم لم يفهمني كما يجب "[٤].

[١] - مقدمة للشعر العربيّ: أدونيس - ط٣ - دار العودة - بيروت ، ١٩٧٠. ص ١٠٦.
[٢] - الحوارات الكاملة لأدونيس :أسامة إسبر -ط٢ - دمشق ، ٢٠١٠. ص ٣/٤٠٠.
[٣] - المصدر نفسه، ص ٢/٩.
[٤] - المصدر نفسه، ص ٣/٦.

فالنقد الذي تناول رؤيته الشعرية بوصفها تسمية جديدة وخلقاً للأشياء وتناولها على أنّها بداية، مازال قاصراً، أو بالأحرى مثل هذا النقد لم يتمّ بشكله الخاصّ حتّى الآن. فما زالت المحاولات فرديّة. لكنّها تحاول أن تصل إلى المستوى الذي يؤسّس له أدونيس في مشروعه المتجدّد والمتحوّل.

يفرّق أدونيس بين أدوات الشعر وبين أدوات النقد. إذ إنّ أدوات الشعر داخلية، داخل النص، أي علاقات بين الأشياء، بينما أدوات النقد خارجية معياريّة، يقول: "لا أعتقد أنّ شهادة الشاعر المتّصلة بما يكتبه تتناقض مع النقد، بل على العكس تفيده وتضيئه، لأنّها شهادة من داخل، بينما النقد مهما كان عميقاً ليس إلّا شهادة من الخارج "[١].

بناءً على ذلك، فإنّ وظيفة النقد الأدبي كما يُقدّمها أدونيس تقوم على الكشف في خبايا النص الأدبي من أفكار ومعانٍ وصور جمالية وتفسيرها وتحليلها ومحاورتها بغيرها، بغية الكشف عن دلالاتها، الأمر الذي يفتح مجالاً للمتلقّي والقارئ ليتواصلا مع النص من خلال ما ترسمه إشارات النص المكثّفة وليكشفا عن جوانب الإبداع فيه، فبذلك تسهم وظيفة النقد الأدبي من خلال تفسير ما في النص من جماليات في خلق ذوق أدبيّ لدى الكتّاب أوّلاً، ولدى المتلقّين ثانياً، إلى جانب تشكيل أذواقهم الفنيّة وتهذيبها. لذلك فإنّ أدونيس يرى محاولات قراءة في النقد، فلم ينشأ نقد يدرس تطوّرات الشعر، وذلك عائد إلى أنّهم لا يقرؤون النّص، كنصّ من علاقات وعلاقات بين الأشياء. "الأمية هي في هذا النقد السائد، النقد الذي لا يقرأ النّص كنص، وإنّما يقرأ المؤلف واسمه وتاريخه وانتماءه الطائفي أو الطبقي، أو اتجاهاته السياسية، ولكنّه لا يقرأ جملة من نصّه أبداً، لذلك فهو نقد جاهل بشكل كامل"[٢].

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ كلام أدونيس عن النقد الأدبيّ غالباً ما يُفهم على أنّه مطالبة بالخروج على قواعد النّقد والنقّاد، لكنّه في الحقيقة ليس خروجاً، يوضّح أدونيس ذلك في قوله: "أنا قلت إنّ هناك قواعد للكتابة وضعها أسلافنا، يقولون لكي تكون شاعراً يجب أن تكتب كلاماً موزوناً مقفّى. هذه قاعدة ... وهذه القواعد ينبغي على المبدع أن يكون فوقها جميعاً. وذلك لأنّ قصيدة واحدة من شأنها أن تغيّر كل قوانين الإبداع "[٣].

معنى ذلك، إنّ النقّاد يرون الحسن والجودة والجمال فيما وافق القواعد المقرّرة في نظم الشعر وإنشاده. وإذا نظرنا إلى الفلاسفة ومعظم المفكّرين ممَّن لديهم التجربة الرائدة نرى أنّهم ينسفون كلّ شيء، يغيّرون ويضيفون ما يُناسب توجّهاتهم وتطلّعاتهم، فلماذا لا يحقّ للشاعر أن يبتكر ما هو مغاير، ولماذا لا توجد مواهب رائدة إبداعية كالتي كانت في الماضي؟ ولماذا لا نكون على الأقل مبدعين في مستوى الأسلاف؟ على الأقل إبداعيّاً شعريّاً. فالنّقد مرجعيّة إبداعيّة تتفتّق بين الحين والآخر تبعاً لذخيرة المبدع وثقافته، فكيف إذاً بأدونيس الذي قرأ معظم التراث العربي والغربي، وتسلّح بعدّة ثقافية شرقية وغربية، تراثية ومعاصرة. والنقد يكون عظيماً إذا وقع اختياره على تجربة رائدة، قيّمة مغايرة؛ لأنّها تستلزم معايير جديدة وأسساً مختلفةً للتقييم النقدي. لكن ما يحدث على الساحة النقدية هو أنّ الحركة النقدية عاجزة إلى حدٍّ ما عن مواكبة حركة الإبداع واستمراريتها، وذلك بسبب هيمنة الثقافة السائدة. وفي مقابل ذلك هناك أسماء لامعة مؤسّسة في مجال النقد كان لها بصمة خاصّة كما يرى أدونيس. يقول في ذلك:" لكن هناك بوادر وأسماء لامعة تؤسس لهذا النقد الجديد، وأذكر على سبيل المثال: د. جابر عصفور، ود. كمال أبو ديب "[٤]. وما يهمّ أدونيس هو أن يكون الشاعر العربي فاعلاً في نتاجه الشعري يُعنى بقضايا الإنسان، وعلاقة الإنسان بالعالم من حوله. فالإنسان هو الهمّ الأكبر في نظر أدونيس.

---

[١]- الحوارات الكاملة لأدونيس: أسامة إسبر ، ص ٣/١٠.
[٢]- مقدمة للشعر العربي: أدونيس، ص ٢٦.
[٣]- الحوارات الكاملة: أدونيس ، ٣/٤٦.
[٤]- المصدر نفسه، ص ٣/١٥٤.

كما أن النقد الأدبي عند أدونيس مكاشفة واستشراف؛ أي حركة واعية، فالناقد إذا أراد أن يحقّق قراءة نقدية مهمّة عليه أن يحيا مع النص، يعيش طقوسه وأجواءه الإبداعيّة؛ أي على الناقد أن يتحسّس مناخات النص ويعيد قراءة النص من جديد. فالقراءة المثالية هي القراءة اللّانهائية، اللامكتملة، القراءة التي يمكن أن تتطوّر باستمرار. فالنقد يشيخ ويهرم إن وقف عند حدٍّ معيّن، والناقد يدفن نفسه بيديه إن ركن إلى المستوى الذي وصل إليه. والنقد مكاشفة مطلوبة لأنّ الشعر يستلزم هذه المكاشفة واللامحدودية، يقول أدونيس: "لأنّ الشعر هو بالضبط مالا تستطيع أن تحدّده. لأنّه هو هذه الحركة من الكشف المتواصل، وكل تحديد له، هو تحديد نسبي من حيث أنّه يمكن أن تحدّد بعض الأشكال والصور، لكن الشعر مثل الحب، يعني أن تحدده، أن تعرف نقيضه، لكن لا تعرفه هو بالذات، تعرف ما ليس شعراً"[١]. فالنقد السائد حول الشعر هو أنّه كلام موزون مقفّى، فلو كان هذا الحكم هو السائد، لتبيّن أنّ ثلاثة أرباع الكلام ليس شعراً.

يشير (نصر حامد أبو زيد) إلى أنّ مفهوم النقد الأدبي عند أدونيس متأثّر بمباحث النقد الغربي، يقول في ذلك: "فالنقد الأدبي عند أدونيس متأثر بمباحث النقد الغربي، حيث يقوم بزخرفة التراث النقدي التقليدي، ينتقي منها ما هو جيّد، وينبذ ما هو رديء، فهو شاعر ومفكّر منظّر. فقد واجه في الوسط الثقافي العربي الفجوة بين الخبرة الجمالية الجديدة من جهة، والمعايير النقدية السائدة من ناحية أخرى "[٢].

أدونيس من الشعراء الذين امتلكوا وعياً نقدياً، يدلّ على اطّلاعه الواسع ومتابعة لما يطرحه النقد من مفاهيم واتّجاهات وقضايا مختلفة. يفسّر أدونيس كيف أنّه لا توجد آلية واحدة لنقد الشعر؛ فهو بداية تجدّد باستمرار، لا يحدّ بقاعدة أو بغيرها. "الشعر كالحب – ابتكار متواصل، بداية دائمة. لو أمكن تحديد الحب، لتوقفنا عن ممارسته. ولو أمكن تحديد الشعر لكان بطل أن يكون هو هو "[٣].

مفهوم النقد الأدبي عند أدونيس ليس مغايراً لمفهوم النقّاد فحسب، وإنّما هو حركة توليدية خلّاقة، فيها فعل إبداعيّ يقرب من فعل الشعر وحركيّته؛ بمعنى أنّ النقد الأدبيّ إبداع على إبداع، وليس مجرّد قياس الصّحة والجودة والرداءة ومطابقة الاختلاف والمعنى القريب واللفظ السّهل. وهذا ما يطلب من الناقد أن يكون رائياً، له عين ثاقبة مستقبلية لا آنية؛ ليضع بصمته الخاصّة، فيكون حينها مشاركاً في معنى النص، مضيفاً عليه وخالقاً له مرّة أخرى.

يقول أدونيس: "إنّ للنّص مستويين: الأوّل هو النص كإمكانية لمعانٍ مختلفة، أي كبؤرة للدلالات، والثاني هو النص كمجموعة من المعاني التي كوّنتها القراءات المختلفة. والناقد هو في هذا المستوى، شريك في معنى النص"[٤]. فطاقة الناقد طاقة انعتاق وتحرّر وتساؤل دائم، طاقة تفجير. وجمالية النقد نابعة من التساؤلية التجاوزية المطبّقة على النص الأدبي. والنقد الأدبي يحاول أن يقرأ داخل النص دون أن يطلق حكماً جاهزاً وفق معايير سابقة فرضها أو حدّدها النقّاد. "فالنقد الجديد يحاول أن يقرأ النص بذاته، ويقدّم هذه القراءة بوصفها احتمالاً نقدياً – تقويمياً، من احتمالات عديدة. إنّه إذاً، لا يقدّم مجموعة من الأحكام القاطعة ...، يؤكّد استقلالية النص، ولا يعدّه أداة إيديولوجية، وإنّما يتناوله كأفق، أو تحوّل أو حقل "[٥].النقد الأدبي عند أدونيس

[١]- الحوارات الكاملة لأدونيس : أسامة إسبر ، ص ٣/١٢٠.
[٢]- مقابلة مع أدونيس: نصر حامد أبو زيد - مجلّة الفصول - المجلد الأول - ع١ ، ص ٢٣٢/٢٣١.
[٣]- الكتاب الخطاب الحجاب: أدونيس - دار الساقي - ط١- بيروت ، ١٩٧٠. ص ١/٩.
[٤]- سياسة الشعر: أدونيس - ط١ - مكتبة بغداد - دار الآداب - بيروت ، ١٩٨٥. ص ٥١.
[٥]- زمن الشعر: أدونيس، ص ٣٦٠- ٣٦١.

يغطي نتاجه الأدبي بلغة نقدية خاصّة، فيصبح الخروج على الشكل الشعري النموذجي ليس خروجاً فنيّاً فحسب، بل هو خروجٌ ثقافيٌّ، خروج من حالة معتادة إلى حالة مفعمة بالحيوية.

إذاً، النقد الأدبي عند أدونيس ليس مجرّد قواعد وأحكام معيارية يقاس خلالها العمل الأدبي، بل هو خيط يجمع بين أطرافه أشياء واتجاهات شتّى. فلكلّ عصر ذوقه الحاص ولونه الخاص. والأحكام نابعة من متطلّبات الذوق الأدبي الثقافي. بالإضافة إلى أنّ مفهوم النقد الأدبيّ عند أدونيس يقوم على حساسية جمالية وإرادة، لا يمكن الوصول إليها إلّا عبر عين ناقدة مبدعة. فالناقد الرائي هو الأقدر على إحياء وخلق النص من جديد. إذ إنّ هذه الحساسية متأتّية من القطيعة مع كل ما يعرقل السير في اتّجاه جمالية التحوّل.

مفهوم النّص الأدبي:

كثيراً ما عُرّف النّص الأدبي على أنّه قطعة كتابيّة، يكون الغرض الأساسي منها جمالياً أو فكرياً. والنّص الأدبيّ عند أدونيس ليس كتابةً فقط. بل هو مجموعة أنظمة متداخلة ومترابطة، كما أنّه حالة حضور، كلّما كان الكاتب ذا تجربة أدبيّة كبيرة ورؤيا عميقة، كان أكثر مقدرة على تحقيق النّص الأدبيّ. وهذه القدرة كامنة في القدرة على الخلق والابتكار والاستشراف. من هذا القبيل ما جاء عن النّاقد عبد الملك مرتاض قوله: "إنّ النّص الأدبيّ ليس مجرّد تفاحة لذيذة تلتهمها بِشَره، ثمّ لا تكاد تفكّر في الشجرة التي أثمرتها. بل إنّه روح ونفس وقبس وجمال وحكمة ولغة ... النص هو كالقدر والكتابة هي الكاتب قابعاً بين كلماتها حيث تضحكك أو حين تبكيك"[١].

ومن المفكّرين من يعدّ النّص وعاء التراث الأدبيّ الجيّد نثره وشعره، على اعتبار أنّ النّص الأدبيّ لا تُعرف دلالته إلّا من خلال النصوص التي تماثله. وإذا رأينا مفهوم النص عند أدونيس وجدنا مفهوماً مغايراً. أدونيس لا يرى في النص الأدبي ما يماثله من نصوص، أو ليس بالضرورة هناك من النصوص ما يماثله. ليس النص ألفاظاً ومعاني ومستوى صرفياً ونحوياً ومعجمياً. لا بدّ للنص من أن يعلو على هذه المعايير. فالنّص ليس كينونة قابلة للتعريف، وهو أكثر الموضوعات تناولاً في الدراسات اللغويّة، يؤدّي وظيفة التواصل بين المبدع والمتلقّي. يقول في ذلك: "ينبغي النظر إلى القصيدة الحديثة بوصفها نصّاً يُدرس ببنيته الخاصّة، أي ضمن العلاقات التي تقيمها لغة النص: تراكيب، وصوراً و رموزاً... واللغة: الكلمات والعلاقات "[٢].

مفهوم النص عند أدونيس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم القراءة، يقول رافضاً طريقة القراءة التي تعاين النص الشعري من منطلق واقعي "تلك القراءة التي ترى إلى النص الشعري بوصفه نتيجة نهائية لفاعلية انتهت "[٣]. علماً أنّ هذا القارئ سيكون مختلفاً عن قارئ اليوم المضمر ونداءً له. ففكرة انفتاح النص على القارئ، وأنّ القارئ له حضور مضمر في النص تشير إلى تخطّي وعي أدونيس النقدي لربط النص بالثبات والجمود والاكتمال والجمال المطلق، وتشير مرّة أخرى إلى ضرورة تناول النص كأفق لامحدود، كسماء لها امتداد لا نهائي. "النص الشعري المفترض هنا هو قراءاته التي تمت، وهو كذلك يتجاوزها إلى قراءات لاحقة، فهو مفتوح دائماً على قراءة جديدة، ومعنى آخر. وهويته العميقة، إذن، لا تكمن في تفسير واحد يتملكه "[٤]. فالنص الشعري بذلك نص مفتوح على عدّة نصوص أخرى مغايرة مختلفة باختلاف القراءة وثقافة القارئ (المتلقي). لربما هذا ما جعل أدونيس يركّز على دور المتلقي في سير الإبداع

[١]- القراءة بين القيود النظرية وحرية التلقي: عبد الملك مرتاض - مجلة تجليات الحداثة - ع ٤ ، ص ٣٩.
[٢]- فاتحة لنهايات القرن: أدونيس - ط١- دار الآداب - بيروت ، ١٩٨٠. ص ٢٥٩.
[٣]- زمن الشعر: أدونيس، ص ١٦٠.
[٤]- موسيقى الحوت الأزرق: أدونيس، ص ٦١.

الأدبي؛ لأنّه الزاد الأساسي الذي يترك بصمةً في سماء الأدب والنقد. فأهم ما يقوم به النقد هو التركيز على القراءة (القارئ)، المستقبل للنص. ومن هنا كانت مجموعة الأسئلة تطرق باب أدونيس في كلّ مرحلة من مراحل إبداعه، يقول في ذلك :"فمن مهمات النقد الأولى أن يتناول التلقي، القراءة، بقدر ما يتناول النص، الإبداع. فالسؤال: "كيف ننقد النص الأدبي؟". يتضمّن، إذن، بالضرورة، سؤالاً آخر: كيف نقاربه لكي نتمكّن من أن ننقده، أي، كيف نقرؤه ؟"[١].

عندما يتحدّث أدونيس عن القارئ؛ قارئ النص الأدبيّ، لا يقصد ذلك القارئ الذي يسقط ما في رأسه على النص، أو القارئ الذي يريد أن يزيد نفسه اقتناعاً بما هو مؤمن به. فنحن بالأحرى لا نقرأ لنبحث عن جديد، بل إنّنا نقرأ لنزيد أنفسنا قناعة بما نحن مقتنعون به. وهذا القارئ لا يريده أدونيس، لأنّه يبحث بين مكوّنات النص عمّا يؤكّد ويدعم رأيه. يوضّح أدونيس صورة هذا الناقد (القارئ) التقليدي، يقول: "ما يضمره في عقله ونفسه. ينتظر من النص أن يكون عوناً له، إيجاباً أو سلباً، ... سلفاً يعفي نفسه من القيام بأيّ جهدٍ للتقدّم نحو النص، والدخول فيه بحثاً وتساؤلاً"[٢]. وإذا كان اعتقاد القارئ أنّه كامل الثقافة والمعرفة. فالقراءة ستكون حينها إلغاءً للنص، تميته لأنّها تشوّهه وتحرقه؛ نظراً لكونها تلبية مباشرة لحاجات القارئ. والقراءة هنا قراءة سطحية، خارج النسيج المترابط للنص، تنظر إلى النص بآنية؛ لا ماض ولا مستقبل، بل حضور اللحظة فقط. بينما القارئ المتعمّق هو الذي يفتح الأفق لإثارة الأسئلة، وينظر إلى النص بطاقة الانعتاق والتحرّر وطاقة التفجير والتساؤل. وهنا تتبدّل الجمالية القديمة المعتادة، يقول في ذلك: "يقرأ النص من حيث هو عمق ثقافي_تاريخي. وهذا القارئ يحدّد اللقاء في العمق، والذي يتيح الكشف عن أهميّة النص، ودوره وهو الذي يولّد معناه المتحرّك "[٣]. القارئ هنا هو قارئ نخبة. فالقارئ مالم يكن ناقداً أو قارئاً في مستوى الشاعر، فإنّه يصبح بحاجة إلى دليل يثبت من خلاله فهمه الصحيح للنص. كلّ ذلك يتمّ من خلال فعل القراءة الصحيحة.

يوضّح أدونيس صورة القراءة التقليدية للنص الأدبي، يقول: "القراءة هنا امتلاك للنص _سواء كان أدبياً أو دينياً. لكن من تقاليدنا العربية أنّ النص هو الذي يمتلك القارئ، بحيث يهيمن عليه ويحوّله إلى مجرّد شارح أو مفسّر يؤمن ويُطيع "[٤]. وبهذا يصبح فعل القراءة ليس مجرّد سير العين على صفحات النص، وإدراك الذهن لما تمرّ عليه العين؛ وإنّما هي عملية خلق جديدة لآفاق خلّاقة تؤثّر في المتلقّي الذي سيكون حتماً قارئاً ثانياً، وسيكون هناك مبدع أوّل. ولا بدّ للمبدع من قارئ بداخله يوجّه نتاجه. فقد يكون هذا القارئ هو المؤلّف نفسه، أو قد يختلف عنه، أو ربّما يتخيّله المؤلّف. فانعدام وجود القارئ مستحيل. هذا ما يؤكّده (صلاح فضل) بقوله: "الشاعر يكتب لا محالة بشكل يدعو القارئ لتقبّل ما ينشئ، وبدون هذا التقبّل لا وجود للشعر، والتقبّل هو الذي يمنح النص انفتاحاً ويمنح القارئ مشروعيّة التصرّف"[٥]. ولابدّ أيضاً من أن يتسلّح القارئ بعدّة ثقافية كافية ليقتحم مجاهيل النص الأدبيّ. يقول الناقد (رشيد بن حدو) في ذلك: "لا بدّ للقارئ الماهر الذي يرجو الوصول إلى خبايا النص أن يكون مزوّداً بطاقة وقدرة كبيرتين تسمحان له بالولوج إلى عالم النص "[٦].

---

[١]- سياسة الشعر: أدونيس. ص ٤٤.
[٢]- المصدر نفسه، ص ٥٧.
[٣]- المصدر نفسه، ص ٦٠.
[٤]- رأس اللغة جسم الصحراء: أدونيس - ط١ - دار الساقي - بيروت، لبنان ، ٢٠٠٨. ص ٣٠٤.
[٥]- أساليب الشعرية المعاصرة: صلاح فضل - ط١- دار الآداب - بيروت ، ١٩٩٥. ص ٢٣.
[٦] - العلاقة بين القارئ والنص في الفكر الأدبي المعاصر: رشيد بن حدو، مجلة عالم الفكر - مج ٢٣_ ع١، الكويت، ١٩٩٤.ص٤٧٥.

مفهوم الكتابة:

اقترن مفهوم الكتابة عند النقّاد بالشفويّة كما يرى أدونيس، فمن الزاوية التي يقدّم لها أدونيس لمفهوم الكتابة، نجد أنّنا بحاجة إلى تأسيس نوع أو نمط جديد للكتابة غير الكتابة السائدة لنواكب تطوّر المفاهيم. فذلك لن يتحقّق إلّا عندما نتخلّص من البحث عن الأجوبة، لنعوّد أنفسنا على طرح الأسئلة الجديدة التي تشكّل فرقاً جوهريّا في الفكر والثقافة، فالسؤال هو الذي يستدعي المزيد من الأسئلة. وبغير ذلك ستبقى الكتابة ناقصة مشوّهة. دون أن نفهم أنّ الكتابة التي يؤسّس لها أدونيس خارجة عن سياقها التاريخي، لا إنّها امتداد لا نهاية له. فبالأسئلة نؤسّس لكتابة جديدة، يقول أدونيس في ذلك: "صحيحٌ كما تقول أنّ الأسئلة تشوّش الحواسّ، وتفقدها فطريّتها، لكن، دون الأسئلة، أو دون القدرة على طرحها، لا تحيا الحواس ... دون ذلك؛ ستظلّ الكتابة في هذا المجتمع، وتبعاً لذلك، ستظلّ الثقافة ناقصة، وحزينة وسطحيّة "[١].

يذهب أدونيس إلى تعريف الكتابة كما يؤسّس لها، يقول: " الكتابة الخلّاقة هي، إذاً، خروجٌ من الزمن الخيطي المنسجم والمتآلف، وهي تالياً، ليست نتيجة منطقية لما سبقها. إنّها على العكس انشقاقٌ وزلزلةٌ "[٢]. وإن كانت هذه الكتابة انشقاقاً، فلا يعني ذلك في حال من الأحوال أنّها خارجة على التاريخ أو خارج نطاقه، بل إنّها تعني أنّها خارج التمحوّر حول الماضي؛ لأنّ الكتابة بحسب أدونيس تبدأ من الفراغ والنقص، فكما أنّ أدونيس يولي أهميّة كبيرة لكيفية قراءة النص، كذلك يوضّح أهمية الكتابة شأنها شأن القراءة. فكلاهما ضروري للآخر، ولا يستقيم أحدهما إلا بالآخر. يوضّح أدونيس العلاقة التي تربط بين القراءة والكتابة، يقول: "الكتابة صوتٌ منحوت، القراءة كتابة أخرى، صوت آخر. من لا يعرف أن يقرأ لا يعرف أن يكتب ... الكتابة اختزال للمعنى. في كلّ خضوع للقاعدة نوعٌ من خيانة الكتابة"[٣].

أدونيس لا يقطع صلته بالماضي، بل إنّ تجربته في الكتابة تتّكئ على التعالق مع شخصيات تراثية عربية وغربية، أمثال أبي نواس، مالارميه، بودلير، بشار بن برد ... لكن مغامرته في الكتابة تقوم على تحوير جمل وعبارات وابتكارها لنفسه. فهو وليد لحظات التمرّد والذاتية في درجة كبيرة من الشمولية واللامحدودية؛ إذ إنّ شعاره (الحداثة والكونية). يقول في ذلك: " القصيدة التي تبطل أن تكون لحظة انفعالية، لكي تصبح لحظة نوعية تتداخل فيها الأنواع التعبيرية، نثراً ووزناً"[٤].

فعصرنا الحالي بحاجة إلى نمطٍ كتابيّ جديد، يناسب مستوى الثقافة النقديّة التي تتطوّر باستمرار مع حاجة المجتمع إلى التغيير والتطوّر، حاجتنا إلى إثارة السؤال اللامنتهي. "الكتابة في قرننا الطالع إمّا أن تمارس بوصفها اختراقاً، وبوصفها إحاطة معرفية، وإمّا أنّها نافلة. الكتابة قائمةٌ على السؤال، ولا يقدر السؤال أن يتواصل، إلّا إذا سار على الجسور التي تصل بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية "[٥].

يرى أدونيس أنّ لكلّ مبدع آلة لغوية هي سرّ الإلهام والإبداع. لكنّه يتساءل فيما إذا توقّفت هذه الآلة، هل يتوقّف الإبداع ويموت الشعر؛ لأنّ ذلك مرتبط بالمعرفة؛ معرفة النفس معرفة صحيحة. "حين أعرف نفسي تمام المعرفة، لا أعود قادراً على كتابة الشعر ولكن مثل هذه المعرفة أمر مستحيل، لذلك لا يمكن أن يموت شعري"[٦].

---

[١] - المحيط الأسود: أدونيس - ط١- دار الساقي - بيروت، لبنان ، ٢٠٠٥. ص ٣٤٠.
[٢] - المصدر نفسه، ص ٣٦٣.
[٣] - المصدر نفسه، ص ٤١٨.
[٤] - مقدمة للشعر العربي: أدونيس، ص ٩٧.
[٥] - موسيقى الحوت الأزرق: أدونيس، ص ٣٩٢.
[٦] - الحوارات الكاملة لأدونيس : أسامة إسبر ، ص ١/٢٢٦.

نستطيع أن نلمح الجدلية في كتابات أدونيس، أو بالأحرى ما يُثير الجدل هو أنّه يوصي بعدم تقسيم الكتابة ويعود ويُقسّمها، كما أنّه يرى أنّ الخطابة خلاف الكتابة، ثمّ يعود ويرى قاسماً مشتركاً بينهما في مستوى من مستوياتها. وما ذلك كلّه إلّا لنبني ونهدم ونعيد البناء. أو بالأحرى يدعونا إلى أن نشكّ في كلّ شيء ونعيد التفكير مرّة أخرى. فلا نستطيع أن نخفي قدرته على جعل القارئ في حيرة من أمره. فلا نكاد نأخذ له رأيّاً ونسلّم به حتى يُعيد تفكيكه، وكأنّنا_ وأدونيس في رحلة مطاردة، ما إن نصل إلى الشيء حتّى نضيّعه، وهكذا في رحلةٍ مستمرة، وكيف لا يكون ذلك وشعاره قائم على نفي المصطلحات التي تمارس في حقل النقد، حيث يتّضح ذلك في كلّ ما يتّجه إليه، اللامحدودية، اللانهائي، اللامنتهي ...

الكتابة التي يرسم لها أدونيس تأتيه من حيث لا ينتظر، ومن المكان الذي لم يُحدّد سابقاً، وفي لحظة خاطفة. "لا طقوس لي. تجيئني الكتابة كما تأتي غيمة مفاجئة، كما تهبّ الرّيح، لا أستطيع أن أكتب وراء طاولة على الإطلاق"[١]. لا يستعد أدونيس لكتابة قصائده خلف مكتبه، بل كثيراً ما يكتبها في أثناء سيره في الشارع، بين الناس والزحام، في المقهى وفي عشواء المكان، فهو وحده وسط ضجيج البشر. "أنا أكتب قصائدي بدمي ... بجلدي ... بخطواتي ... بسيري ومع الناس ... أجلس في المقهى وأستطيع أن لا أسمع أي صوت وأكون وحدي ... وهناك_ أكتب"[٢]. وإلى جانب ذلك لا يستطيع المبدع أن يكتب ذاته مالم يكتب العالم من حوله، أو بالأحرى مالم يعد تشكيل العالم والإنسان من حوله. أي العناء بهما، فهما يشغلان بال الشاعر دائماً، فلا سبيل للانفكاك منهما. ومع ذلك قد لا يكتب أكثر من قصيدة على مدار العام. يترك أدونيس الأمر متاحاً للزمن والخبرة حتّى يصل بذلك إلى الذروة؛ ذروة الانفجار.

يجد أدونيس في الكتابة أهميّة كبيرة، يبصر قليلاً من ذاته، يتعرّف إلى ذاته، لكنّه لا يعرفها معرفة كاملة، يكتشف أسراراً في قرارة نفسه، يعيش بشعور جمعي لا فردي، لأنّه يعيش الإنسان والعالم في نفسه. "أكتب لأنّني لا أرى خارج الكتابة ما يسوّغ حياتي، فبالكتابة أجد نفسي أو أتعرّف عليها، وأحيا، شاهداً لوجودي عليه"[٣]. فكما من المهم أن نكتب إلّا أنّنا في الوقت نفسه، لا بدّ لنا من أن نكتب بحريّة، حريّة الكتابة والتفكير. فالتطابق مع الأصل والسابق بشكل أو بآخر ليس كتابةً، لا بدّ من نقد هذه الأشكال؛ كي لا تكون الكتابة احتواءً لما هو سابق. فلا معنى للكتابة ما لم تكن تهديماً أو تخريباً. فأدونيس نفسه سيتوقّف عن الكتابة ما لم يشعر بالخروج والتمرّد.

أدونيس يرى أنّ مهمّة الكتابة لم تأخذ دورها في المجتمع العربي. فالكتابة كتابة بالجسد والكلام. فما من مواهب سلكت هذا الدرب، وذلك عائد بطبيعة الحال إلى طبيعة العلاقة بين الكتابة والواقع، بين القول والفعل، بين الكلام والتجربة. فلا ضير من السير نحو المجهول لنحقّق ما يرفع طاقة الإنسان العربيّ الكامنة، لا بدّ من تفتيقها وانتشالها. يقول في ذلك: "مهمّة الكتابة اليوم هي أن تحدث في نسيج الكلام وفي الوعي ذاته زلزلة توازي الزلزلة التي يحدثها انفجار الجسد شهيداً في الوعي الاجتماعيّ، وأظنّ أنّ هذا لم يحدث "[٤]. لم يقطع أدونيس الأمل، صحيح أنّ ذلك لم يتحقّق حتّى الآن، لكنّه يترك مساحة كبيرة ليحدث في المستقبل القريب.

[١] - المصدر نفسه، ص٢/٢٧٥.
[٢]- المصدر نفسه، ص ١/٢٢٧.
[٣]- الحوارات الكاملة لأدونيس: أسامة إسير، ص ٢/٦.
[٤] - المصدر نفسه، ص ٢/١٤٨.

فقد حرص أدونيس على أن يبيّن ماهية الكتابة الأولى، إذ يقول: "الثورة الكتابية الأولى التي نشأت في وجه الخطابة، نثراً وشعراً هي كتابة القرآن، والقرآن نهاية الارتجال والبداهة "[١].

يبيّن أدونيس أنّ من ملامح علم جمال الكتابة أن ننظر إلى المبدع بطاقة خلّاقة وطاقة إبداعية. فقد حوّلت الكتابة فعل الإبداع من التعبير عن الواقع الخارجيّ إلى الغور في الذات الاجتماعيّة. وهو تحوّل صحبه تغيّر الرؤيا الشعرية إلى رؤيا خاصّة. وبذلك أصبحت وظيفة الكتابة هي خلق فعالية جمالية إبداعية جديدة.

أنواع الكتابة

يوصي أدونيس بعدم تقسيم الكتابة إلى أنواع في مقابلاته وحواراته، لكنّه يعود إلى الفصل بين نوعي الكتابة (الإبداعية والوظيفية). لأنّ مايؤسّس له يبقى طموحاً، فلا نستطيع أن نجد نوعاً واحداً للكتابة ما دامت الثقافة العربيّة _ هكذا؛ أي إنّها مازالت تسير في درب الأصوليّة والنمطيّة القديمة، فمعظم كتاباتنا ما تزال تقليديّة تعليمية (وظيفية)، إن صحّ القول. لذلك سنذهب مع أدونيس هذا المذهب في الفصل بينهما.

الكتابة الإبداعية:

لا شكّ أنّ قدرة الكاتب وطاقته الإبداعية مرتبطتان بمقدرته على التجاوز المستمر لما يكتبه وإلّا كتب نهايته. فأدونيس يفرّق بين الكتابة _الإبداع، وبين السلطة _النظام، مؤكّداً أنّ الأدباء الذين يخضعون لإيديولوجيات معينة هم مأسورون لغيرهم، لا في ذواتهم فحسب، بالإضافة إلى أنّهم يخونون القضية الأكبر، قضية النهوض بالإنسان والارتقاء به نحو الأفضل. يقول: "حين نقارن بين السلطة _النظام، والكتابة _الإبداع، نجد أنّ الكتابة الإبداعية مظهر وجودي جوهري من المظاهر الحضارية في الشعب. بينما السلطة _النظام ليست إلا مظهراً زمنيا، عابراً، مؤقتاً. بل إنّ السلطة هي التي يجب أن تخضع للإبداع "[٢]. لذلك يصبح من الخطر ألّا يتمكّن الكاتب العربي من الخوض في موضوعات وقضايا لا يجرؤ أن يقتحم مجاهيلها، أو بالأحرى لا يمكنه تناولها والنظر فيها. والخطر الذي يداهمه إبداعياً، هو عدم قدرته على معالجة أفكار تخطر في باله، بل إنّها تبقى رهينة مخيّلته، حبيسة ذهنه.

بإمكاننا أن نتكلّم على الكتابة الشعرية ونعتبرها كتابة إبداعية، لكنّها بحسب أدونيس طريقة خاصّة مغايرة في التعبير، قائمة على الاختلاف وكسر العادة الخانقة. فليس بالضرورة أن تكون ابتداءً وتنسف ما سبق، بل قد تكون مغايرة واختلافاً في موضوعات سابقة، لكن بتعبيرية جديدة. يقول في ذلك "ليست الكتابة الشعرية، بوصفها "مضموناً" ابتداءً، كما يتوهّم بعضهم، وإنّما هي استئناف، لا بدء في المطلق ... من حيث هي أسلوب خاصّ، أو طريقة تعبير خاصّة "[٣]. فالشعر والحالة هذه، شعر خاصّ، كتابة خاصّة، لغة خاصّة. لأنّه اختراق وحركة في اتجاه الكشف عن المحجوب، وسفر متواصل ... حيث إنّ قضية بناء الكرامة لحريّة الإنسان، مرتبطة بقضية تحريره من كبته ودفائنه العتيقة. يقول أدونيس في ذلك: "إذا كانت للكتابة الإبداعية مهمة سياسية، فهي التأسيس لإقامة سياسة تكون وسيلة ومكاناً لتحرير الإنسان أو بناء الحياة الكريمة الحرة "[٤].

[١] - الثابت والمتحول: أدونيس، ص ٣/٢٣.
[٢] - زمن الشعر: أدونيس، ص٢٠٣.
[٣] - موسيقى الحوت الأزرق: أدونيس، ص ٣٠.
[٤] - المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

لكن، السؤال هنا، هل تقتصر الكتابة الإبداعية على كتابة الشعر. فقد كثر الكلام على الكتابة بالنثر، والكتابة بالوزن، فأدونيس يرى أنّ المفاضلة بينهما قول سطحي غير نابع من أساس ثقافي تعبيري، يقول في ذلك: "تصبح القصيدة مثلاً كتابة جديدة، ليست وزناً بالضرورة، وليست لا وزناً بالضرورة، تصبح إيقاعاً وزنياً نثرياً أو نثرياً وزنياً. يمكن أن تمتزج فيها الأنواع كلّها، وهكذا تصبح القصيدة شكلاً مفتوحاً "[١].يوضّح أدونيس سبب الخلط بين المفهومين، إذ يقول: "الخطأ ناتج في أكثر جوانبه، عن المزج بين الوزن كإيقاع أصلي، والوزن كنمطيّة "[٢]. فقصيدة النثر لا تقوم على كون هذه نثراً، وعلى كون هذه وزناً، وإنّما تقوم على ما يختزن الوزن والنثر من الشعر؛ طاقة الكشف وغنى البنى التعبيريّة. فقد وُجدت الممارسة الكتابيّة بالنثر في عصرنا الحالي. الأمر الذي يدلّ على تطوّر الكتابة الشعرية العربية. فالممارسة الكتابية بالوزن لا تقلّ شأناً عن الكتابة بالنثر. "مجرّد الكتابة بالنثر لا تعني أنّها تحمل أيّة قيمة إطلاقاً كالكتابة بالوزن، وإذن، تقويم الممارسة شيء آخر مستقل تمام الاستقلال "[٣]. فكما أنّ هناك شعراء يكتبون بالنثر، كذلك هناك شعراء يكتبون بالوزن، فمنهم من أجاد ومنهم من أساء. أي من كتاباتهم ما هو جيّد، ومنها ما هو رديء.

أسئلة أدونيس أسئلة التحوّل والاستمرارية. لعلّ ما قاله في كتابه (الكتاب أمس المكان الآن) ما يشير إلى ماهية الكتابة الإبداعية. حيث يقول في ذلك: "ما الكتابة؟ ماذا سيكتب/ أطياف ما حفظته له الذاكرة /أم سيكتب نيرانه الساهرة"[٤]. هذا السؤال مركزي، يفتح ما كان وعياً حاصلاً، وما سيكون كمشروع مستقبلي، وهو سؤال قيّم يتجلّى فيه كل ما كان وما سيكون. ففي لحظة الإبداع يبدع الشاعر هواجسه ويسائلها، في اللحظة ذاتها.

ولا بدّ أيضاً من التمييز بين الكتابة الإبداعية وبين الكتابة الأدبية. فالنص الأدبي هو كلّ تعامل رقيق مع اللغة، بينما النص الإبداعي هو مستوى رفيع، من التعامل الخاصّ مع اللغة. والخطأ الشائع الذي يحصل لدى الكثيرين هو الخلط بين أدبية الكتابة وبين الإبداع فيها، فيوصف العمل الأدبي بأنّه ليس أدبياً، والمراد في حقيقة الأمر، أنّه ليس إبداعياً.

ولتحقيق الكتابة الإبداعية لا بدّ من توفّر التجربة الأدبية، فالكاتب مهما كانت أدبيّته عالية، فإنّه من دون تجربة لن يتمكّن من كتابة نص أدبيّ إبداعي. الكتابة الإبداعية عند أدونيس هي كتابة فنّ، يستخدم الكاتب قدراته وخبراته ليرسلها إلى القارئ. أو قد يكتب من أجل أن يكتشف شيئاً جديداً، لم يكن يعرف أنّه يبحث عنه، لذلك فهو على موعد دائم مع الكتابة الفجائية.

فعبقرية الشاعر متمثّلة في اختراع كلام جديد لمواضيع قديمة، كما يقول نزار قباني: "إذ لا قيمة لشعر يعيد اكتشاف الأشياء المكتشفة ويستعمل حجارة العالم القديم كما هي"[٥]. فالشعر لا يحتمل التكرار، والعبقرية هذه هي نفسها التي تجعل من الكتابة كتابة إبداعية بالمفهوم الأدونيسي. حاجتنا اليوم كتابة ونقداً إلى قراءة وكتابة إبداعية شعرية، كحاجتنا إلى كتابية حداثية، تخرج بالشعر من أُطر الوظيفية النموذجية إلى أُطر الكتابة الإبداعية بوصفها كتابة طليعية(أولى).

---

[١]- الحوارات الكاملة لأدونيس : أسامة إسبر ، ص ١/١٣٨.
[٢] - المصدر نفسه، ص ١/١٣٨.
[٣]- المصدر نفسه، ص ٣/١٧٣.
[٤]- الكتاب أمس المكان الآن: أدونيس - دار الساقي - ط١ - بيروت ، ٢٠٠٢. ص ٣/٦٨.
[٥]- قصّتي مع الشعر: نزار قبّاني - منشورات نزار قباني - د. ت. ص ١٢٤.

الكتابة الوظيفية

كما عرض أدونيس لمفهوم الكتابة الإبداعية، فإنّه يوضّح كيف تجلّت الكتابة الوظيفية، وكيف أخذت أشكالاً مختلفة، وعرض لها؛ كيف تمارس في مجتمعاتنا الثقافية، وكيف تجري بين الأدباء وعلى الساحة الأدبية. وإذا كانت الكتابة الإبداعية إغناءً للغة العربية في متّسع أشكالها التعبيرية، وتفجير كنوزها بطاقة الكشف والتجاوز، وغنى الطاقة الإيحائية التعبيرية، فإنّ الكتابة الوظيفية خلاف ذلك كما سيورد أدونيس. يقول عن الكتابة الوظيفية، كيف تجهل المخزون الإبداعي للغة العربية: "وهناك، بالمقابل، نقدٌ ونوع من الممارسة الكتابية لا يجهلان اللغة العربية في خصوصيتها التعبيرية _الجمالية وحسب، بل إنّهما يجهلان أيضاً مخزونها الإبداعي، فضلاً عن أنّهما يجهلان طاقتها الإيحائية ويرفضان شعر الوزن، وهما لذلك، عاجزان عن فهم الجدة ومعناها في اللغة الشعرية العربية"[١].

فالكتابة الوظيفية قائمة على أنّ العربي والكاتب العربي يكتبان إلى جماعة مستهلكة، لم تعتد الإنتاج الحقيقي "الجانب الاستهلاكي وحده هو الذي يُحرّك الثقافة العربية ويقودها، ويهيمن عليها "[٢]. لأنّها مرتبطة بالقبلية والخطابية السائدة، لا تزال مقيّدة بحبالها. وما يزال الشعر مقيّداً. والشاعر محاصر بين أن يرث أو يقتبس، وذلك ليس حكراً على الشعر. بل نجد هذه الوظيفية في الأنواع الأدبية الأخرى كالمسرح مثلاً، عندما يكون شرحاً للكلام، يكون كوسائل الإعلام الأخرى كالجريدة والتلفاز. يقول أدونيس: "وحين يكون المسرح شرحاً للكلام لا يقدّم لي كمشاهد، إلّا صورة حركية للكلمة. وكلّ مسرح يكتب بهذا الكلام لا يكون إلّا جثة "[٣].

فالكتابة الوظيفية هي ذلك النوع الذي يرتبط بالمواقف الاجتماعية. غرضها اتّصال الناس لحاجة معينة، لا تخضع لأساليب الجمالية والخيال تؤدّي غرضاً حياتياً يمثّل أهميّة وضرورة كضرورة التعلّم داخل المدرسة. ليس غريباً إذا كانت الكتابة هكذا، أن تفتقد في كتاباتنا إلى رؤى كبرى في قضايا الإنسان وجوداً ومصيراً. فالكتابة إن لم تثر القلق الكياني ليست كتابة بالمعنى الدقيق للكتابة الحقيقية. يقول: "الكتابة العربية السائدة هي من جهة الملائكة _من جهة التفاؤل واليقين والوضوح، ولا هَمّ لها إلّا أن تقتل الشياطين. وهي تؤسس علاقتها بالقارئ. بوصفه بؤرة انفعالية، طامسة الأبعاد الأخرى، النقدية والتأملية والتساؤلية "[٤].

فصفة النتاج تنطبق على الكتابة العربية أكثر ما تنطبق عليها صفة الخلق، فالمنتج يصدر عن قاعدة أو نموذج سابق، بينما الخلّاق يبعد عن المسلّمات ومقاييسها. يقول: "إنّها كتابة بلا شكل، لأنها كتابة بلا معنى وغياب التشكيل في الكتابة يؤدّي إلى فيض كتابي لا هوية له، أو إلى تضخّم كتابي بلا شكل. كلّ كتابة بلا شكل هي كتابة بلا كاتب"[٥].

كما أنّ ذلك يؤدي إلى بعد التلقّي وتغييب دور المتلقّي؛ لأن الكتابة الوظيفية غير متينة، وغير مبنية على أساس يمكّن (القارئ) من المشاركة في عملية الخلق والإبداع. فهي توهم القارئ بأنّها واضحة ويقينية. وكما يذهب أدونيس إذا عدنا إلى تراثنا الشعري وقمنا بقراءته، نجد أنّ هذه القراءة تكشف لنا أنّ الشعر وظيفة اجتماعية، ووسيلة تأثير؛ أي أنّه كتابة وظيفية، يقول أدونيس في ذلك: "إنّها تكشف عن أنّ هذا النتاج يجسّد، تذوّقاً وتقويماً، الصورة

[١]- سياسة الشعر: أدونيس، ص ٦١.
[٢]- الكتاب الخطاب الحجاب: أدونيس، ص ١٤٥.
[٣] - زمن الشعر: أدونيس، ص ١٩٤.
[٤]- موسيقى الحوت الأزرق: أدونيس، ص ٢٨.
[٥]- المصدر نفسه، ص ٢٩.

نفسها التي رسمها أسلافنا للشعر، وعاشوها. وهي صورة تقدّم الجماعة على الفرد، وتنظر إلى الشاعر بوصفه صانعاً ينتج من أجل الجماعة، وهو، إذن، لا يصنع أو لا يجوز أن يصنع إلّا ما تقبله الجماعة، وتفهمه، ويروق لها"[١].

النقد بين الإبداع والتقليد:

يوضّح أدونيس كيفية الوصول إلى إبداعيّة النقد، فلا ضير من التحرّر من أسر العبوديّة؛ عبوديّة الماضي والتقليد العفن؛ بمعنى قتل الأب (الصورة المطابقة) لإحياء الابن (الصورة المتجدّدة). ولكن للأسف، ما يحصل في مجتمعنا العربيّ هو قتلٌ للابن وإحياء للأب. يقول أدونيس في ذلك: "يضفي علم النفس أهميّةً كبيرةً على مفهوم "قتل الأب" بالمعنى الرمزي طبعاً، في تحليله لمفهوم الإبداع أو التقدّم، فهذا القتل، بحسب نظرية فرويد، أمرٌ لا بدّ منه إذا شاء الابن أن يتحرّر"[٢]. فلا بدّ من أن يتمّ قتل الأب رمزياً، فبدون ذلك لا يستطيع الابن أن يتحرّر، ولا يستطيع الخروج على سلطة الأب (الأصل الأوّل)، أو بالأحرى يظلّ تابعاً له وفاقداً استقلاليته، تابعاً ومقلّداً له في كلّ شيء.

يُشير أدونيس كيف يتمّ قتل الابن، فلا يستطيع أن يبصر النور، أو لا يستطيع أن يخرج إلى الضوء، بل يظلّ رهين العتمة والظلمة. يقول أدونيس عن طريقة قتل الابن: "لكن ما يتمّ قتله حقيقة هو الابن رمزياً لا الأب، الابن في التراث العربيّ هو الذي يتمّ، على العكس، قتله رمزياً. وهو يُقتل بطريقتين: إمّا أن يحوّل منذ ولادته إلى "أب" يحل بالقوّة محلّ "أبيه"، وإمّا أنّ "الأب" يُفرض عليه، بوصفه، ابناً، ثقافته وقيمته "[٣]. إذاً، الابن يرث أباه، كما يرث حقلاً أو بيتاً. فيكون نسخة مطابقة له، تتكرّر في زمنه وعصره، وإن كان الشخص مختلفاً؛ لأنّ الجوهر واحد، والمضمون هو ذاته، يحمل قيمه، ثقافته، تطلّعاته، رؤاه التقليدية ... ولعلّ هذا السبب الذي أدّى إلى النقد التقليدي. وإلى عدم قدرة النقد على التجاوز والانفكاك من شرك الماضي الغابر، يقول في ذلك: "أليس في هذا ما يوضّح السرّ في هيمنة التقليد. والذائقة التقليديّة على الفكر والفن والأدب "[٤].

والمشكلة الأساسية في النقد الشعري مرتبطة إلى حدٍّ ما بمشكلة القراءة. فأزمة الشعر كما يرى أدونيس ليست أزمة إبداع وتألّق فقط، أي أنّها أزمة قراءة وتناول. دون أن يعني ذلك أنّ أدونيس يعمّم على كلّ النقّاد. فهناك نقّاد يقرؤون الشعر جيّداً، لكنّ محاولاتهم فرديّة، تتشكّل على مستوى الفرد، لم ترق بعد إلى مستوى الجماعة. والتقليدية النقدية هي التي تنظر إلى الشعر على أنّه صدى لأحداث المجتمع، وانعكاسٌ لصور الحياة المختلفة. فالشعر بحسب هذا النقد محاكاة وائتلاف. "استمرار النظر إلى الشعر بوصفه "انعكاساً"، أي بوصفه "تعبيراً"، أي بوصفه "وسيلة""[٥].

فالتقليد كما هو ظاهرة اجتماعيّة، فهو ظاهرة ثقافية أيضاً، والنقد الحقيقي إبداع آخر، نص خلّاق آخر، يقول أدونيس: "فقول هيروقليطس لن تعبر النهر مرّتين، هو قول يتضمّن قولاً آخر: لن تعبر النهر، أيّها العابر وأنت أنت مرتين "[٦]. فأين النهر الذي سيعبره ذلك العابر. يُرجع أدونيس سبب الخلل النقدي والثبات في فهم

[١]- المصدر نفسه، ص١١٧.
[٢]- الكتاب الخطاب الحجاب: أدونيس، ص١٩٠.
[٣]- الكتاب الخطاب الحجاب: أدونيس، ص ١٩١.
[٤]- المصدر نفسه، ص٢٠١.
[٥]- المصدر نفسه، ص ٨٢.
[٦]- موسيقى الحوت الأزرق: أدونيس، ص٧.

النص الشعريّ إلى النظر للنّص كأنّه سطح، وإلى التعلّق بمقاييس الجماليّة القديمة، فما زلنا إلى اليوم نقرأ نصّ امرئ القيس ونصّ أبي نواس القراءة ذاتها التي قرأها أسلافنا رغم التغيّر الذي طرأ على مفهوم الثقافة الشعرية وعلى مفهوم التذوّق الشعريّ. فلا بدّ من النظر إلى النص الشعري في معزل عن السبق الزمني والتأخّر الزمني. فالجماليّة الجاهلية لم تعد مقياساً للجمال عند أغلب النقّاد. يقول: "هناك نقد مدرسي – وظيفي، لا يتطلّب من الشاعر أن يكتب شعراً، بقدر ما يطلب إليه أن يجسّد موقفاً معيناً أو يسرد حادثةً أو يجسّد فكرةً معيّنةً، بمعنى، أنّه يطلب من الشاعر أن يكتب ما هو غير شعري"[١].

أدونيس كناقد مبدع لا ينظر إلى الكلاسيكية، على أنّها ضد الإبداع، بل إنّه يشيد بها، الكلاسيكية التي يقصدها هي الكلاسيكية الحديثة المتجدّدة في آنٍ معاً، بعيدة كلّ البعد عن الكلاسيكيّة المتعارف عليها. كثيراً ما يردّد أنّه يطمح في حداثته إلى أن يكون كلاسيكياً، يقول في ذلك: "من موقع الشعر. كل شعر عظيم هو، في آن، كلاسيكي وحديث، أي شعر لا يستنفد "[٢]. فامرؤ القيس ومالارميه ... حداثيون وكلاسيكيون في الوقت نفسه. لكن عندما تصبح الكلاسيكية اكتسابيّة، قائمة على التلقين والاكتساب تصبح نمطيّة، تقليديّة. "تصبح الكلاسيكية اكتسابيّة، أي مجموعة من الخصائص المجرّدة، بعاملين: ضعف الطاقة الإبداعيّة في الشعب، في فترة تاريخية، وفعل التسييس والتعميم الذي يمارسه النظام السائد لبسط هيمنته وترسيخها "[٣]. وبذلك يتحوّل الشعر إلى قالب وقاعدة وقانون وعندها يختبئ الشعر ويُغيّب.

النقد الجديد ينظر إلى حركة الشعر الحديث بصرف النظر عن موافقة الشعر للنظام الخليلي والالتزام به، دون أن يعني ذلك الخروج أنّنا نرفض نظام البحور الخليلية. لكنّنا نستطيع التجديد خارج هذه البحور. يقول في ذلك: "أن يكتب الشاعر كأنّه يبدع قصيدته للمرة الأولى، بعيداً عن التقليد والتنميط. والثاني. هو التوكيد على أنّ هناك إمكانات كثيرة لكتابة شعر عربي خارج البحور الخليلية "[٤] .

فإذا كانت نظرة النقد إلى قيمة الشعر العربي العظيم في بحوره، لكانت الحداثة إلغاءً لشعر امرئ القيس وذي الرّمة والمتنبّيّ...فالنقد الإبداعي ينظر إلى شعر بدوي الجبل على أنّه طاقة متجدّدة فريدة. من خلال قدرته الفنيّة العالية وسيطرته وقدرته على استعمال اللغة. النقد الإبداعي هو ابتداء الشكل، بينما النقد التقليدي فهو استخدام هذا الشكل وتوظيفه. فالحكم على تجربة أدبيّة معيّنة بالنجاح أو الفشل من شأن التاريخ والزمن، إذ يستطيع التاريخ أن يكشف التجربة الرائدة من التجربة الفاشلة والزمن كفيل بذلك أيضاً. كما أنّ النقّاد الكبار يستطيعون أن يلتمسوا جوهر التجربة بحكم الخبرة والممارسة النقديّة. "والذي يحكم في هذا الصدد هو العارف، كلنا يعلم أنّ الصائغ الجيّد يكتشف بالملامسة العملة المزيفة من العملة الصحيحة. ولكن لكي نكتشف التجربة الزائفة من التجربة الصحيحة، لا بدّ أن نكون صائغين كبار، ولدينا خبرة عظيمة "[٥] .

[١]- زمن الشعر: أدونيس، ص٥٤.
[٢]- الحوارات الكاملة لأدونيس : أسامة إسبر ، ص ١/٢٠٥.
[٣]- الحوارات الكاملة لأدونيس : أسامة إسبر ، ص٦ ٢/٢٠.
[٤]- المصدر نفسه، ص ٢/٢٨٩.
[٥]- المصدر نفسه، ص ٢/٢٨٥.

الخاتمة:

النقد الإبداعي هو نقد يمارسه الناقد باعتباره كتابة إبداعيّة، تطمح إلى محاورة المشهد الثقافي العربيّ. النقد ليس دراسةً وتجريباً فحسب، بل هو موهبة وخبرة جمالية، يكون فيها للمرجعية الثقافية وعمق الرؤيا والحساسية الجمالية دور مهم في إرساء معالم حالة نقدية فاعلة. أدونيس يبرهن للمتلقّي الضائع في متاهات التقليد أنّ هناك فرقاً جوهريّاً بين الإبداع والتقليد، والعملية الإبداعية تستدعي أن يكون الناقد مشاركاً في معنى النّص، وقول ما لا يستطيع قوله. أو بالأحرى، الناقد الإبداعي هو من يستطيع أن يكتب نصّاً ثانيّاً على النّص الأوّل، بمنزلة لغة ثانية، يطبّقها على لغة أولى. وفي ظلّ ذلك لا بدّ للكتابة من التخلّي عن الوظيفية في مقابل الإبداع الحقيقيّ . فما زلنا نعيش في وهم الشفويّة، لم نرق بعد إلى مستوى الكتابة _ الإبداع . الأمر الذي يحتاج إلى جهود كبيرة من قبل الجماعة ، فهناك محاولات فردية بحاجة إلى العمل الجماعي الذي يؤسّس للكتابة _ الكل ، بعيداً عن التجزيئية والتقليدية . وإلى جانب ذلك، النص الإبداعي هو النص الذي يقول مالم نعتد على قوله ، أو أنّه يقول أشياء غير متوقّعة ؛ فهو فضاء مفتوح لا نهائي .

المصادر والمراجع:

١. *أساليب الشعرية المعاصرة*: صلاح فضل – ط١– دار الآداب – بيروت ، ١٩٩٥.
٢. *الحوارات الكاملة*: أدونيس –ط٢ – دمشق ، ٢٠١٠.
٣. *رأس اللغة جسم الصحراء*: أدونيس – ط١ – دار الساقي – بيروت، لبنان ، ٢٠٠٨.
٤. *زمن الشعر*: أدونيس – دار العودة – بيروت ، ١٩٧٠.
٥. *سياسة الشعر*: أدونيس – ط١ – مكتبة بغداد – دار الآداب – بيروت ، ١٩٨٥.
٦. *فاتحة لنهايات القرن*: أدونيس – ط١– دار الآداب – بيروت ، ١٩٨٠.
٧. *قصّتي مع الشعر*: نزار قبّاني – منشورات نزار قباني – د. ت.
٨. *الكتاب الخطاب الحجاب*: أدونيس – دار الساقي – ط١– بيروت ، ١٩٧٠.
٩. *الكتاب أمس المكان* الآن: أدونيس – دار الساقي – ط١ – بيروت ، ٢٠٠٢.
١٠. *المحيط الأسود*: أدونيس – ط١– دار الساقي – بيروت، لبنان ، ٢٠٠٥.
١١. *مقدمة للشعر العربيّ*: أدونيس – ط٣ – دار العودة – بيروت ، ١٩٧٠.
١٢. *النقد الأدبي*: أحمد أمين – مؤسسة هنداوي – القاهرة ، ٢٠١٢.

المجلّات والدوريات:

١. *العلاقة بين القارئ والنص في الفكر الأدبي المعاصر*: رشيد بن حدو، مجلة عالم الفكر – مج٢٣_ ع١، الكويت ، ١٩٩٤.
٢. *القراءة بين القيود النظرية وحرية التلقي*: عبد الملك مرتاض – مجلة تجليات الحداثة – ع ٤.
٣. *مقابلة مع أدونيس*: نصر حامد أبو زيد – مجلّة الفصول – المجلد الأول – ع١.